



ديفيد فوستر والاس



كيف

تكتب ضد «اللا مبالاة»؟

بقلم رشاد عبد القادر · ١٦ كانون الأول ٢٠٢٥ · قراءة في ٤ دقائق

قد يبدو الأسلوب الذي يكتب به ديفيد فوستر والاس، للقارئ الذي يلتقيه أول مرة، أن فيه مغالاة، متعباً، بجمل طويلة، جمل اعتراضية، جمل محشورة، وتفصيل أكثر من اللازم أحياناً. لكن، سرعان ما يتبدد هذا الانطباع بمعرفة لماذا يكتب بهذا الأسلوب.

لم يعيش سوى 46 عاماً، عندما أنهى حياته عام 2008 بالانتحار، بعد توقفه عمداً عن تناول أدوية الاكتئاب التي داوم عليها منذ باكورة شبابه. حياته ككاتب كانت صاخبة مداً وجذراً، تماماً كما كانت حياته الشخصية؛ مع ذلك، ترك أثراً في كل قطعة كتبها، ولا يهم إن كانت رواية، أو مذكرة، أو مسودة، أو مقابلة، أو مقالاً صحفياً، أو حتى كلمة ألقاها في حفل تخرج للطلاب. الرجل كان، وبحق، استثنائياً.

الخلاصة أنّ الكركند، في الأساس، ليس سوى حشرة بحرية عملاقة. وكمعظم مفصليات الأرجل، يعود وجوده إلى العصر الجوراسي؛ وهو، من الناحية البيولوجية، أقدم بكثير من الثدييات، إلى درجة أنّه قد يكون؛ ولا مبالغة في ذلك، آتياً من كوكبٍ آخر. ثم إن شكله ليس مريحاً للنظر، ولا سيما في حالته الطبيعية ذات اللون البنيّ المخضرّ، وهو يلوّح بمخالبه كأنها أسلحة، وتهتزّ قرون استشعاره السمكية كالسياط. وصحيحٌ أيضاً أنّه يُعدّ من زبّالي البحر، يقتات على البقايا والأشياء الميتة، وإن كان لا يتردّد كذلك في التهام بعض الرخويات الحيّة، وأنواع معيّنة من الأسماك المصابة، وأحياناً أفراداً من جنسه.

● لغة بيولوجية باردة

● يبدأ بصدمة

● وصف جسدي للكركند وغير مريح

● ينهي الفقرة بالصدمة الأكبر: فالكركند يأكل أبناء جنسه أيضاً

النص الأصلي

The point is that lobsters are basically giant sea-insects. Like most arthropods, they date from the Jurassic period, biologically so much older than mammalia that they might as well be from another planet. And they are-particularly in their natural brown-green state, brandishing their claws like weapons and with thick antennae a whip-not nice to look at. And it's true that they are garbagemen of the sea, eaters of dead stuff, although they'll also eat some live shellfish, certain kinds of injured fish, and sometimes each other.

النص الأصلي

«Tourism and lobster are the midcoast region's two main industries, and they're both warm-weather enterprises, and the Main Lobster Festival represents less an intersection of the industries than a deliberate collision, joyful and lucrative and loud. The assigned subject of this Gourmet article is the 56th Annual MLF, 30 July-3 August 2003, whose official theme this year was »Lighthouses, Laughter, and Lobster.« Total paid attendance was over 100,000, due partially to a national CNN spot in June during which a senior editor of Food & Wine magazine hailed the MLF as one of the best food-themes galas in the world. 2003 festival highlights: concerts by Lee Ann Womack and Orleans, annual Maine Sea Goddess beauty pageant, Saturday's big parade, Sunday's William D. Atwood Memorial Crate Race, annual Amateur Cook Competition, carnival rides and midway attractions and food booths, and the MLF's Main Eating Tent, where something over 25,000 pound of fresh-caught Maine lobster is consumed after preparation in the World's Largest Lobster Cooker near the grounds' north entrance. Also available are lobster rolls, lobster turnovers, lobster sauté, Down East lobster salad, lobster bisque, lobster ravioli, and deep-fried lobster dumplings. Lobster thermidor is obtainable at a sit-down restaurant called the Black Pearl on Harbor Park's northwest wharf. A large all-pine booth sponsored by the Main Lobster Promotion Council has free pamphlets with recipes, eating tips, and Lobster Fun Facts. The winner of Friday's Amateur Cooking Competition prepares Saffron Lobster Ramekins, the recipe for which is now available for public downloading at www.maine lobster festival.com. There are lobster T-shirts and lobster bobblehead dolls and inflatable lobster pool toys and clamp-on lobster hats with big scarlet claws that wobble on springs. Your assigned correspondent saw it all, accompanied by one girlfriend and both his own parents – one of which parents was actually born and raised in Maine, albeit in the extreme northern inland part, which is potato country and a world away from the touristic midcoast.»

لسنوات، وهذا ليس تفصيلاً عابراً، بل مفتاحاً لفهم شخصيته، ومن ثم كتابته.

كان يدرك وعلى نحو مؤلم الفراغ الذي يولّده الاستهلاك، وأن «الترفيه» زيف، أن التبسيط كاذب، وأن السخرية تختبئ وراءها العزلة في عالم يطالبك دائماً أن تكون «مرحاً». وكانت كتاباته تقاوم دوماً «اللامبالاة»، ولا تختبئ خلف البلاغة، لذلك هي طويلة، ومتعبة، ومليئة بالالتفافات.

حتى عندما يلجأ إلى التقشف Minimalism في الكتابة والاقتصاد فيها، تجد أنه يفاجئك، لنأخذ هذا المقطع من مقاله «تأمل الكركند»:

انظر كيف يلفت الأنظار منذ البداية:

الخلاصة أنّ الكركند، في الأساس، ليس سوى حشرة بحرية عملاقة.

ففي مخيلة القارئ أن الكركند طعام فاخر، لكنه يقدمه هنا، ويختزله في «حشرة بحرية عملاقة»، ويكسر عمداً الصورة الذهنية عنه.

بعد هذه الصدمة الأولى، يهدئ والاس الإيقاع. ينتقل إلى لغة بيولوجية باردة: العصر الجوراسي، الأسبقية الزمنية على الثدييات، الفارق التطوري الهائل. يدخل القارئ، بعد المفاجأة، منطقة تفسير علمي، شبه محايدة.

ينتمي والاس إلى جيل كُتّاب ظهرُوا في أمريكا الثمانينيات والتسعينيات في مرحلة ما بعد الحداثة المتأخرة، وكان المشهد الأدبي حينها مشبعاً بالكتابة الساخرة، الشككية، التفكيكية؛ الكتابة الباردة، التي لا تدفع القارئ إلى الانخراط العاطفي.

والاس الذي كان مهووساً بالرياضيات (وله كتاب فيها)، والفلسفة واللغة، قال دائماً إن: الخطر ليس في الابتذال، بل في اللامبالاة. لذلك حاول في أسلوبه أن يلامس «الوعي» المعاصر كما هو: الوعي المشتت، المتختم بالمعلومات، المحاصر بالإعلانات، الغارق في الخيارات الفائضة عن الحاجة، والباحث -نتاج ذلك كله- عن معنى.

فالجملية عنده طويلة؛ لأن التفكير في عصرنا متشعب، والتفاصيل كثيرة؛ لأن العالم به فيض، والجملية الاعتراضية، الهامشية، تظهر، لأن إدراكنا للعالم من حولنا لم يعد خطياً. وعلى القارئ في أثناء قراءته، أن يختبر العبء ذاته الذي يختبره الإنسان المعاصر.

كتابة والاس فعل مقاومة؛ مقاومة السرعة، مقاومة الاختصار، مقاومة الراحة، مقاومة الاستهلاك السهل للنص. كتابته تجبر القارئ على أن يبطل، أن يتوقف، أن يعيد الجملة. كان بحق مفكر يكتب، لا كاتباً يفكر؛ فالجملة عنده صراع عقلي، محاولة للإمساك بالفكرة قبل أن تنفلت، ودفع مقابل ذلك ثمناً نفسياً باهظاً.

عانى والاس منذ شبابه من اكتئاب حاد، استمر معه طوال حياته. خضع للعلاج النفسي، وأقام في مصحات نفسية، وتناول أدوية مضادة للاكتئاب

محدّدة بالأسماء، و4 تفصيلات بأرقام: (حفلات موسيقية، مسابقات، استعراضات، أطعمة، أكشاك، أكبر قدر في العالم، أوزان، مواقع إلكترونية، ألعاب، قمصان، قبعات بمخالب ذات نوابض).

هذه ليست مغالاة Maximalism عشوائية. التراكم هنا يعمل بوصفه محاكاة للتجربة نفسها. القارئ، وهو يمرّ عبر هذا السيل من التفاصيل، يبدأ بالشعور بالفيض المفرط للعالم من حوله، بالضجيج، وبشيء من الإرهاق. ويتحول الاحتفال تدريجياً، من مناسبة بهيجة إلى آلة ضخمة، تعمل بكفاءة، وتنتج المتعة كما تُنتج أي سلعة أخرى.

المغالاة هنا ليست استعراضاً لغوياً، بل خياراً واعياً، يريد والاس أن يشعر القارئ بما يشعر هو به، لا أن يكتفي بمعرفة ما يحدث:

إذاً، التقسّف (الإيجاز، الاختصار) والمغالاة (الإسهاب) الأسلوبين ليسا نقيضين، بل أداتين. والاس يستخدم الجملة القصيرة حين يحتاج إلى خلق صدمة محددة، ويستخدم الجملة الطويلة حين يريد خلق أثر تراكمي. الأسلوب، هنا، تابع للغرض، لا العكس.

الأسلوب، هنا، ليس هوية ثابتة، بل اختيار عملي. السؤال ليس: «هل أكتب جملة قصيرة أم طويلة؟» بل: «ما الأثر الذي أريده من هذه الفقرة؟»

ثم يعيد والاس اللعب بالصورة التي نحتفظ بها عن «الركند الفاخر» عبر وصف جسدي غير مريح: اللون البني المخضّر، المخالب التي تُلوّح كأسلحة، قرون الاستشعار التي تهتز كالسياط. يقول كل شيء بنبرة هادئة، ومن دون انفعال.

ثم تأتي الجملة الأخيرة في الفقرة، الصدمة المؤجّلة:

لا يتردّد كذلك في التهام بعض الرخويات الحيّة، وأنواع معيّنة من الأسماك المصابة، وأحياناً أفراداً من جنسه.

هذه الجملة قصيرة نسبياً، بلا تعليق أخلاقي، وبلا تفسير إضافي. قوتها لا تكمن في المعلومة وحدها، بل في تأخيرها، وفي وضعها في نهاية الفقرة، حيث لا شيء بعدها يخفّف وقعها.

ما يفعله والاس هنا ليس تقسّفاً بمعنى الاختصار، بل تقسّفاً في المسار. كل جملة تؤدي وظيفة محدّدة: صدمة، تهدئة، تشويه، ثم قفلة مزعجة.

وما ينبغي أن يتعلمه الكاتب: القوة ليست في إيجاز الكلمات، بل في ترتيبها، وفي معرفة أين تبدأ الفقرة، وأين يجب أن تنتهي.

في مقطع آخر من المقالة نفسها، ينتقل والاس إلى النقيض (ظاهرياً). فقرة طويلة، مليئة بالتفاصيل، عن «مهرجان مَيّن للركند». في هذا المقطع وحده، يورد الكاتب 36 تفصيلاً: منها 16 تفصيلاً عامة، و16 أخرى